المفتاح الأعظم للتأثير

د. علي الحمادي

الإخلاص لله تعالى والاستعانة به هما المفتاح الأعظم للتأثير، ومن أهم مقومات وعناصر النجاح والتوفيق في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

فكم من أناس بذلوا من الجهد والمال والوقت والتفكير ما لا يعلمه إلا الله تعالى ولكنهم لم يستطيعوا التأثير في هذه الحياة أو ترك بصماتهم في جانب من جوانبها.

قال الله تعالى: "وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفاء ويُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة".

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرته لدُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم". (رواه مسلم)

وعن أبي عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: كُنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال: "إن بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُمْ مسيراً، ولا قطعْتم وادياً إلا كانوا معكم، حَبَسَهم المرضُ"، وفي رواية: "إلا شركوكم في الأجر".

ومن إحسان العمل صلاح النية والإخلاص لله تعالى بالسر والعلن، ومن أشرك في عمله غير الله تعالى حبط عمله، وضاع جهده، وزالت بركة فعله وقوله، وأصبح من الخاسرين.

وإذا نوى المسلم الخير في أعماله المباحة حصل على الأجر الجزيل، وقد كان كثير من السلف يتوقف قبل العمل لإصلاح نيته من الرياء والسمعة ومن أي غرض دون مرضاة الله تعالى.

إن التوفيق هومحض فضل الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده ويصرفه عمن يشـــاء، فقد يبارك الله في العمل القليل فيكتب له القبول عند الناس وتتفتح له أبواب التأثير من حيث لا يحتسب المرء، وهنا تكون كلمته صانعة للتأثير، ويكون موقفه صانعاً للتـأثير، وتكون علاقاته صانعة للتأثير، وتكون رؤيته صانعة للتأثير، بل ويكون صمته صـانعاً للتأثير.

فهذا الإمام الحسن البصري رحمه الله كان إذا رؤي ذُكر الله تعالى، وكان إذا دخل السوق ورآه الناس تركوا تجارتهم وذكروا الله تعالى دون أن يتكلم البصري بكلمـة واحدة.

وقال الإمام الذهبي: كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه ثم استفاقوا فحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليُثْنى عليهم فلهم ما نـووا، قـال عليـه السلام: "من غزا ينوي عقالاً فله ما نوى". (رواه أحمـد) وتـرى هـذا الضـرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بـالعلم، وركبـوا الكبائر والفواحش، فتباً لهم، فما هؤلاء بعلماء.

وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرُّخص، وروى الشَّاذَّ مـن الأخبار.

وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتَكه الله، وذهب علمُه، وصار زاده إلى النار.

وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلَّعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بَانَ نقصُهم في العلم والعمل.

وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يُتقِنوا منه سوى نزْرٍ يسير، أوهموا به أهم علماء فضلاء، ولم يدرْ في أذهاهم قطُّ أهم يتقرَّبون به إلى الله، لأهم ما رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رَعاعاً، غايةُ المدرِّس منهم أن يحصل كتباً مُثمَّنة يُخزِنُها وينظر فيها يوماً ما، فيصحِّف ما يُورده ولا يُقرِّره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالمٌ ولا رأيت عالماً (انتهى كلام الذهبي).

نعم، إن أسوأ ما يمكن أن يكون عليه المرء عندما يوكل إلى نفسه، فمن وكل إلى نفسه (لا إلى الله تعالى) فقد خاب وخسر ولقي في دنياه عنتاً وضنكاً وفي آخرته ذلاً وخزياً.

يقول الله تعالى: "وَمَنْ أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى".

ويقول الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى: "والله إني لا أخشى عليكم الدنيا مجتمعة ولكن أخشى عليكم أمرين اثنين: أن تنسوا الله فيكلكم إلى أنفسكم أو تنسوا أخوتكم فيصبح بأسكم بينكم شديداً".

وعن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كنتُ خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: "يا غلام، إنِّي أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعتِ الأقلامُ وجُفَّت الصحف". (رواه الترمذي)

وفي رواية غير الترمذي: "احفظِ الله تجده أمامك، تعرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يعرفْكَ في الشِّدة، واعلمْ أن ما أخطأكَ لم يكنْ لِيُصيبَك، وما أصابك لم يكنْ ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً ". (رواه أحمد)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يـــدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يســـره الله تعالى عليه". (رواه الترمذي)

إن التاريخ مليء بالأحداث والمواقف التي تؤكد أنه من كان مع الله كان الله معه، وأن الذين يستعينون بالله تعالى يعينهم الله، ويسدد خطاهم، ويبـــارك في جهـــودهم، ويحفظهم في دنياهم، وينصرهم على أعدائهم، ويجعل لهم التأثير العظيم والتغيير الفذ.

هذا أبو سليمان، سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله عنه التقى الـــروم، وكان عدد جيشه اثنين وثلاثين ألفاً، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفاً، وفي الصباح ومع طلوع الشمس أقبلت كتائب الروم تتهدر.

وقبل المعركة قال أحد المسلمين لخالد: يا خالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين، اليوم نفر إلى جبل آجا وسلمى، فدمعت عينا خالد، وقال: بل إلى الله الملتجأ، قل ما أكثـــر المسلمين وأقل الروم!! لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأن الروم أضعفوا العدد.

ثم جرد خالد بن الوليد رضي الله عنه سيفه، وجرد المسلمون ســـيوفهم، والتقـــى الجمعان، وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع الروم في كربة وفي سحق ومحق لا يعلمه إلا الله، وانتصر عليهم!! وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

ومن الأهمية هنا أن نشير إلى الإخلاص لله تعالى لا يعني أن يعيش الإنسان منـــزوياً عن الآخرين وفي معزل لا يراه أحد حتى يكون مخلصاً، فهذا مخالف للمنهج الســـوي الذي دعا إليه الإسلام.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فقيل له: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو الرجل يتكلم في أهل البدع ؟ قال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هـــو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، وهذا أفضل".

ويقول الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: " فالقادة الأعلام يوم من أيام أحدهم أكبر من عمر آحاد الناس".

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى مبيناً فضل وعظم القادة المؤثرين المغيرين المعلـــين راية الحق الداحضين للباطل: " فبهؤلاء القادة تجري سنة الله في تحقيق منهج الله لتنفض ركام الجاهلية عن الفطرة، فهم قدر الله لإعلاء كلمته وتسلم منهجه الزمام".

وأخيراً يحسن التنويه إلى الإخلاص لله تعالى يستوجب طاعته والبعد عن معصـــيته، فالمعصية شؤم في الدنيا وبلاء في الآخرة، وهي تستجلب غضب الله تعـــالى، وتحجـــب إعانته وتأييده، كما أن التمادي فيها والإصرار عليها يحرم العبد خيري الدنيا والآخرة.

د.علي الحمادي
رئيس مركز التفكير الإبداعي
رئيـــس مـــركز الدقيقة الواحـــدة
المشرف العام على الموقع الإلكتروني إسلام تايم